اسم الدرس : تفسير سورة الأعراف (١١) | الآيات [٩٤ : ٩٩]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

بسم الله و الصلاة و السلام على رسول الله –صلى الله عليه و سلم–

حقيقة قبل أن نبدأ في هذا المجلس، مجلس مدارسة سورة الأعراف، الكل يسأل و هو حزين عن: ماذا قدمنا لحلب؟

نسأل الله أن ينصرهم، و أن يفرج كربهم، و أن يفك أسرهم، وأن يثبت قلوبهم، وأن يمدهم بمدد من عنده –سبحانه وتعالى– في حين أن الكل تخاذل عنهم.

حقيقةً قد يسأل سائل، بل أنا قد سألت نفسي أو نفسي سألتني هذا السؤال:

كيف تأتي وتعطي هذا الدرس وإخواننا في حلب يُقْتَلون ويشردون ويذبحون؟!

أيُّ قلبٍ هذا الذي يجعلك تستمر في حياتك و كأن شيئاً لم يحدث؟! وحقيقةً هذا سؤال منطقي، وهو سؤال لا يسأله إلا قلبٌ متيقظٌ، يشعر بمعاناةِ أمَّتَه.

وفي الحقيقية إن ما يحدث لأمة الإسلام –ليس فقط ما يحدث في حلب– أمر متجدد متكرر في كل أطراف العالم الإسلامي، بل في قلب العالم الإسلامي، ولكن الناس اتجاه ما يحدث لأمة الإسلام ––ولاسيما أن الله –عز و جل– اختارنا للوجود في هذا الزمان–– ينقسمون إلى أقسام:

- قسمٌ –نسأل الله السلامة و العافية – لا يبالي ويستمر في حياته الدنيوية، ولا يبالي بما يحدث فهو وكأنه انقطع و مات، فاليد عندما تقطع عن الجسد و تظل اليد لا يصلها الدم و لا يصلها الغذاء تموت هذه اليد و تلقى و تدفن.
فالذي انقطع عن التواصل مع الإسلام و العالم الإسلامي هو شخص ميت القلب فيمارس حياته لا يفكر في شيء، لا ينشغل بما يحدث للمسلمين إلا غِبًّا، لا يسأل عن بعض الأنباء إلا على استحياء إذا سأل، وحتى إذا سأل وسمع بعض الأخبار نزل بالسب والشتم واللعن على كل شخص إلا على نفسه، وانتقد كل الناس ولم ينظر ماذا يفعل هو، ثم استمر في دنياه لا يفكر و لا يدعو ولا يبذل شيئًا لنصرة دينه وعقيدته وسنة نبيه –صلى الله عليه و سلم–؛ نسأل الله السلامة، ونسأله سبحانه ألا نكون من هؤلاء.
  - وقسم قد يستمر في أعمال الدين و لكن في جزئيته الخاصة.

ولكن ما معنى جزئيته الخاصة؟!

الله –عز وجل– قد وزَّع الثغور؛ فتجد أن نصرة الدين متفاوتة، فهناك ثغور كثيرة لنصرة الدين: العلم ،الحركة، الدعوة، والجهاد.

فمنهم من يتخصص في جزء من الجزئيات، في مثلًا فرع من الفروع العلمية، والعلم أصلًا جزء من أو وسيلة من وسائل نصرة الدين؛ فهو متخصص في باب –مثلاً– في اللغة العربية، أو جزئية من جزئيات الفقه مثلًا.

فهو من كثرة استغراقه في هذا الثغر مستغرق كليةً، لا ينشغل بهموم العالم الإسلامي فيصيبه نوع من البرود تجاه قضايا العالم الإسلامي.

هذا القسم محق في جزء ومُخطئ في جزء:

- محق في أن لابد أن نستمر ولا نجعل هذه القضايا تؤثر علينا.
- أن نلاقي هذه القضايا بلا مبالاة وأن يخرج الكلام منا باردًا باهتًا، ليس فيه الوعد بالبشرى بنصرة هذا الدين أو تحريض المؤمنين على البذل؛ ألا يخرج هذا الكلام، بل يقابل الشخص المتحمس السائل يقابله بنوع من الجفاء وأنه لا يفقه شيئًا وأنه شاب فيه نوع من الرعونة و الحماس الفارغ ،و تثبيط مثل هذا الشاب المتحمس السائل أمر خاطئ بل لابد من استغلال هذه القضية.

فهناك فارق بين السكينة والبرود!

فالنبي –صلى الله عليه و سلم– كان يتعامل مع الأحداث بسكينة –وليس برود–، وهذا أمر عجيب جدًا و هذه الموازنة دقيقة جدًا، هذه الموازنة هي التي لابد أن نحققها، النبي –صلى الله عليه و سلم– و هو مسند ظهره إلى الكعبة –صلى الله عليه و سلم–، في قمة الاستضعاف في مكة، ويأتيه خباب وقد تأثر من شدة الألم والتعذيب ولم يشتكي إلا بعد أن ازداد عليه الألم وازداد التعذيب وقال يا رسول الله:

"ألا تدعو لنا ؟ ألا تستنصر لنا؟"[1].

[1] - شَكَوْنا إلى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الكَعْبَةِ فَقُلْنا: ألا تَسْتَنْصِرُ لنا ألا تَدْعُو لَنا؟ فقالَ: قدْ كانَ مَن قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فيُحْفَرُ له في الأرْضِ، فيُجْعَلُ فيها، فيُجاءُ بالمِنْشارِ فيُوضَعُ علَى رَأْسِهِ فيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، ويُمْشَطُ بأَمْشاطِ الحَدِيدِ، ما دُونَ لَحْمِهِ وعَظْمِهِ، فَما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ، واللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمْرُ، حتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنْعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخافُ إلَّا اللَّهَ، والذِّئْبَ علَى غَنَمِهِ، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ..

الراوي: خباب بن الأرت | المحدث: البخاري | المصدر: صحيح البخاري | الصفحة أو الرقم: ٦٩٤٣ | خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

هذه الجِلسة و هو مسند ظهره إلى الكعبة فيها نوع من السكينة والطمأنينة؛ ثم قام النبي -صلى الله عليه وسلم- واعتدل وقال له:

(والله ليُتِمّن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله و الذئب على غنمه، و لكنكم تستعجلون) ← هنا أعطاه بشرى وأمل، ثم أمره بعدم الاستعجال ..

وأخبره أن ما تفعله من صبرٍ قد فعله السابقون (لقد كان يؤتى بالرجل من قبلكم) ← فذَكَّره أن له أُسوة في هذا البلاء، وأنه ليس أول المبتلين، بل لقد ابْتُلِي أناسٌ أكثرَ من هذا البلاء وصبروا حتى وصل الدين إلينا!

فينبغي علينا أيضا أن نصبر ونصابر.

(و لكنكم تستعجلون) لا تتعجل النصر، لا تقيس الزمان بمقياسك.

أعمار الأمم و الدول تختلف عن أعمار البشر، فقد يطول البلاء و هو عند الله -عز وجل- بلاء قصير، زمن قصير لكنه عند البشر زمن طويل.

فالموازنة بين أن تكون هادئًا مطمئنًا واثقًا في نصر الله؛ بل أن تموت في طريق المستضعفين وأنت مستبشر أن الله -عز وجل- ينصر هذا الدين؛ فأن تموت مستضعفًا على الطريق الحق هذا أمر خيّر، هذا أمر طيب يجد الإنسان بهذا سعادة في صدره.

هو يموت مستضعف ولكنه يعلم أنه مات منتصرًا لأن الطائفة التي ينتمي إليها هي طائفة الحق.

فهذه السعادة أو هذه الطمأنينة حينما يقول الذي يموت "فزت و رب الكعبة"!، لأنه مات على الحق و يأتي شهيدًا على الناس يوم القيامة، يشهد أنه أدى الأمانة.

وهناك طائفة من الناس تستغرق في جزئيات بعض الدين ،ويحدث مشاجرات لأجل قضايا فرعية -لا نحقر منها- لكن ليس مكان هذه القضايا التعميم على الأمة الإسلامية.

فأحياناً يحدث مشاجرات بين بعض الناس تعمم على عموم المؤمنين؛ وهذه لها الأماكن الخاصة بها في الكتب أو في مجالس العلم أو عند من يتعلم منها و يستفيد منها.

- قسمٌ ثالثٌ و هو الذي يحاول أن يوازن بين الاستمرار في الطريق والاستجابة لمعاناة الأمة، وألا يفكر في نصرة الدين بعيدًا عن ما تمر به الأمة من قضايا وهموم بل يكون متوازنًا بين الأمرين.

فالإنسان لابد أن يفكر كيف ينصر الدين؟ ماذا يحتاج الدين؟، لكن لا يستعجل فالاستعجال لا يأتي بثمرة!

وكان دائمًا د.حازم شومان جزاه الله خيرًا يضرب مثلًا لطالب في السنة الدراسية الأولى في كلية طب ثم وجد هذا الطالب طبيبًا يقوم بنوع من الأخطاء الفادحة، ويسيء الأدب مع المرضى فتعجل هذا الطالب وغضب من هذا الطبيب فقام هو ليعالج المريض، وقال للطبيب انصرف أنت لا تستطيع أن تفعل شيئًا، وبالفعل هذا الطبيب مخطئ، فقام هذا الطالب ومن شدة هذه الغيرة التي امتلأ بها قلبه وهذه الحماسة لنصرة هذا المريض المستضعف فقام ليعالجه!

ماذا سيحدث؟.. سيتسبب في قتل المريض.

فأحيانًا التعجل بالتصدر لمعالجة بعض القضايا التي لا يحسنها الإنسان تؤدي إلى فساد أكثر.

فكيف يوازن الإنسان بين السير في طريق إصلاح مشاكل الأمة وإصلاح نفسه أولًا ومن حوله بدون أن يتعجل، الأمر يحتاج إلى توازن.

و قد قال ربنا -سبحانه وتعالى-: {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ }.. [آل عمران : ١٧٢].

قرح: أي ألم و شدة و جراح، الجراح التي معها الألم فيها القرح.

فهذا القرح لم يمنعهم من الاستمرار في السير؛ لأنه إذا تخاذل الجميع، فقلت أنا: ماذا يفعل تحفيظ الأطفال في المسجد؟ وقال آخر ماذا يفعل تأليف هذا الكتاب؟ وماذا ينفع تعليم المسلمين هذا الدين؟ وأصبح الجميع يفكر بهذه الطريقة هذا ما يريده العدو! يريد هذه الهزيمة النفسية للمسلمين.

بل أحيانًا بعض الصور التي تنتشر فيها نكاية العدو في المسلمين والأذى لهم، ينشرها الأعداء من باب الإعلام المعاكس أو الهزيمة النفسية حتى نقول ليس هناك أمل ونضع أسلحتنا و نقول ليس هناك أمل.

لكن أنت محاسب على ما تستطيع أن تفعله، وسيسألك الله ماذا قدمت وأنت بيدك كذا وكذا وكذا؟ ولن تُسأل عما ليس في يدك.

لكن لابد أن تتأثر نعم، أن تعايش قضيتهم، أن تنشرها، أن تدعو لهم في صلاتك، أن تنتمي إليهم -يكون بينك وبينهم انتماء- ولا تتبرأ منهم، لا تكتفي بمجرد نقض الآخرين وأنت لم تفعل شيئًا، وهذا لا يمنع أيضًا من نقض الآخرين، فأول ما يُسأل الحكومات عما يحدث.

وكنت دائمًا أتسائل كيف تكون فلسطين بلد في منتصف العالم الإسلامي، في قلب العالم الإسلامي، ودول الإسلام تحيط بها ويحدث بها ما يحدث؟!

هذا الأمر حينما كنا نقرأه ونحن أطفالًا في التاريخ مثلًا عن فلسطين وكيف احتلها الصليبيون قبل أن يطهرها صلاح الدين، كنا نتعجب!، كيف وصل الصليبيون إلى فلسطين؟ أين كان المسلمون حينها؟، وقبل أن يأتي صلاح الدين ويحرر المسجد الأقصى، أين كان المسلمون؟! هل كان عدد المسلمين قليلًا؟!

وهذا ما سأله الصحابة حينما تعجبوا: "تتكالب علينا الأمم! أو من قلة نحن يا رسول الله؟ " فهذا سؤال بديهي يأتي في عقل الإنسان!

كيف وصل الصليبيون إلى المسجد الأقصى؟ كيف دنسوه واحتلوه؟ أوَ من قلة نحن؟ قال: لا!

القضية ليست في القلة، القضية في الكثرة التافهة، في الغثائية التي نعيشها (بل أنتم يومئذ كثير، لكن غثاء كغثاء السيل)[٢]

ماذا تفعل مجموعة من الأوراق المتناثرة أمام حجر؟ ماذا تفعل هذه الأوراق المتناثرة المتقطعة؟، لكن أوراق متقطعة متناحرة لأتفه الأسباب، هذا هو حالنا الآن.

فإذًا نحن لا نقوم بإعفاء المسؤولين أولًا عن مثل هذا، لكن أنا أتكلم عن الواجب الذي سنلقى به الله –سبحانه وتعالى–.

سوف يسألنا ربنا –سبحانه وتعالى–، نعم هؤلاء أخطأوا، وفجروا في الخصومة، وأعرضوا وانشغلوا بدنياهم عن آخرتهم، وهم مسؤولون موقوفون بين يدي الله –سبحانه وتعالى–، لكن أنا أتكلم عن واجبنا.

الإنسان لا ينبغي أن يستسلم لليأس والعويل، قال ربنا –سبحانه وتعالى– بعد أشد هزيمة أصابت المسلمين {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ} .. [آل عمران : ١٣٩] ، أن تموت رافعًا إصبعك إلى السماء وتقول الشهادة هذا خير لك من أن تفتن في دينك بسبب دنياك.

[٢] - يُوشِكُ أنْ تَداعى عليكم الأُمَمُ مِن كلِّ أُفُقٍ، كما تَداعى الأَكَلَةُ على قَصعَتِها، قال: قُلْنا: يا رسولَ اللهِ، أمِن قِلَّةٍ بنا يَومَئذٍ؟ قال: أنتم يَومَئذٍ كَثيرٌ، ولكنْ تَكونونَ غُثاءً كغُثاءِ السَّيلِ، تُنتزَعُ المَهابةُ مِن قُلوبِ عَدوِّكم، ويُجعَلُ في قُلوبِكم الوَهْنُ، قال: قُلْنا: وما الوَهْنُ؟ قال: حُبُّ الحَياةِ وكَراهيةُ المَوتِ..
الراوي: ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم | المحدث: شعيب الأرناؤوط | المصدر: تخريج المسند | الصفحة أو الرقم: ٢٢٣٩٧ | خلاصة حكم المحدث: إسناده حسن. | التخريج: أخرجه أبو داود (٤٢٩٧)، وأحمد (٢٢٣٩٧) واللفظ له

فإذًا السير على الطريق، والاستمرار والبذل أمر مهم، فلو كل واحد فكر أن الجزئية الصغيرة التي أقوم بها لا تنفع المسلمين – كما قلت–، لو الكل فكر بهذه الطريقة سينهار المسلمون في كل مكان، ولن تقم لهم قائمة، وهذا هو أشد ما يريده منا العدو.

إذًا لابد من الجمع بين التأثر بأحوال المسلمين ثم سكينة وطمأنينة الثقة في موعود الله –سبحانه وتعالى،– كما أمر ربنا – سبحانه وتعالى– نبيه موسى في أوقات الاستضعاف في آخر يونس {وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}.. [يونس : ٨٧].

في أوقات الاستضعاف {اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً} .. [يونس : ٨٧] أي: قِبَل المسجد، وهذا القول الأشهر، بحيث أن تصلوا في البيوت إذا منعتم من الصلاة في المساجد، أو قِبَل بعضها البعض حتى يسهل التلاقي بينكم، تتلاقون في لقاءات، فيصبر الأخوة بعضهم البعض ويتصبر الإنسان بأخيه {اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً}.. [يونس : ٨٧].

ثم تكون هذه اللقاءات في الصلاة، لا في الثرثرة والعويل {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ}.. [يونس : ٨٧] ، ثم بعد الصلاة تأتي البشرى؛ لأن الإنسان حينما يقوم ويقرأ القرآن وهذه من أجل النعم، إن لم تكن أجل نعمة من الله على المسلمين هي القرآن.

حينما يفزع الإنسان بعد ما يرى مثل هذه النكبات والهزائم، يفزع إلى القرآن يجد أن الأمر أعظم بكثير من اللحظة الآنية التي نعيشها، يأخذك القرآن ويرفعك لتنظر إلى العالم بعد أن تكسر حدود المكان والزمان، وتعلم أن كل شيء بيد الملك –سبحانه وتعالى– {ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ}.. [محمد : ٤] ، وترى حكم الرب –سبحانه وتعالى– في استخراج عبوديات لم تخرج، وبتعذيب أناس بعد أن قامت عليهم الحجة، وتجد الوعد بالنصر وتخرج من القرآن وأنت مستبشر.

ودائمًا نفرق بين أن تستبشر لنفسك وأن تستبشر لدينك، فارق بين أن تستبشر لنفسك أنك أنت من سترى النصر وأنك أنت ستنتصر وبين أن تخرج من القرآن في فرح وطمأنينة أن هذا الدين سينتصر، فالقرآن يطمئنك على دينك لا على نفسك، القرآن يطمئنك ويخبرك أن اطمأن أنت في جند المنتصرين بإذن الله –سبحانه وتعالى–.

لكن متى يأتي النصر؟ بحكمة منه –سبحانه وتعالى–، فلابد أن نزف البشريات في أوقات الأزمات، دعك من الذين يتعاملون بمدرسة واقعية زائدة عن اللزوم أن هذا من التخدير. لا، ليس من التخدير في شيء، أنا لا أبشر الذين يعيشون الآن بالنصر، وإنما أبشر عموم المسلمين الذين يخافون على دينهم أن هذا الدين باقٍ (اللهم رب هذه الدعوة التامة) تقولها بعد كل أذان، هذه الدعوة سوف تتم، والله –عز وجل– يحفظها، والله –عز وجل– يغرس لهذا الدين بيده –سبحانه وتعالى–.

فلابد من استحضار هذه المعاني وأنك في جند الحق وأنت مطلوب منك جزئية، من كان في الساقة كان في الساقة، فأنت مطلوب منك الآن أن تفعل كذا وكذا فلتفعله.

الذي يعمل في الساقة في الجيش وهو يرى المقدمة تطعن وليس له سبيل إلى إنقاذها لابد أن يستمر في عمله وإلا إذا ترك كل منا ثغره سينهار الجيش!

فلابد من الموازنة! أن يكون الإنسان عنده موازنة بين التفكير في الأمة وبين الواجبات الشخصية، لا يطغى شيء على شيء، لا ينعزل الإنسان عن أمته وينشغل بجزئياته، تجد تفكيره جزئي وسطحي وتجده يقيم المعارك على أجزاء صغيرة، ولا ينشغل بأمته لدرجة أن ينسى نفسه، لابد أن يوازن الإنسان.

إذا انشغل بأمته لدرجة أن ينسى نفسه هو يصبح وبال كثير الثرثرة لا يغني عن الأمة شيئًا ولا يفيدها بشيء، فلابد من هذه الموازنة الدقيقة، وأغلب النصائح حينما تستشير أحد الحكماء تكون غالبًا النصيحة "سدد وقارب"، أي لا تنشغل انشغالًا يفضي إلى هلاكك ولا سيما لو أن زادك قليل من القرآن والسنة والعمل، وتتعرض لأخبار متتالية، وهذا للأسف من مساوئ مواقع التواصل الاجتماعي.

تخيل هذه الغصة التي يجدها الإنسان في قلبه ولا يجد زادًا مقابلًا لها من الوحي، يمضي الإنسان ليله كئيبًا حزينًا نائمًا قعيدًا لا يستطيع أن يفعل شيئًا، هذا ليس من مراد الرب! الله -عز وجل- يطلب منك الحزن الذي يؤدي إلى العمل لا يؤدي إلى الشلل.

فدائمًا الألم والأمل متعاقبان،ومن عجائب اللغة أن الألم والأمل نفس الجذر: الألف واللام والميم، نفس الحروف، نفس الجذر اللغوي، فهما متعاقبان: الألم والأمل، بل ربط بعض اللغوين المتأخرين ربط أيضًا بينها وبين الملأ، وقال أن الألف واللام والميم وتفاوت الحروف وتقليب الحروف يخرج عندنا هذه المصطلحات الثلاث.

فالملأ إما أن يكونوا سببًا في ألم الأمة، أو يكونوا أملًا لهذه الأمة وبإخراجها من الألم.

فما نعيشه الآن أن الملأ هم سبب في الألم الذي نعايشه، لكن هذا لا يعني أن نسكت بل لابد أن ننتقل من بعد تخطئة الملأ إلى واجبنا الشخصي، لا يحقر أبدًا الإنسان عمله مهما كان صغيرًا! لا يحقر الإنسان هذا العمل وإلا أصبح قعيدًا مشلولًا؛ لأن من أهم وسائل علاج الإحباط أن الإنسان ينجز شيئًا، أن يقوم ويفعل شيئًا، لكن كما قلت كثرة العويل والبكاء والصراخ لا تغني شيئًا، ثم ماذا؟!

ابكِ في صلاتك، البكاء يختلف تمامًا في سجودك وأنت تدعو لأهل حلب، يختلف تمامًا وأنت تبكي في سجودك تجأر إلى المولى -سبحانه وتعالى-.

كما قلت نريد أن نوازن، لأننا حقيقةً نعيش أزمة عظيمة، حقا ما كنت أحب أن أتكلم في هذا الأمر، لكن الكلام جرنا إليها: نعيش أزمة غياب الكوادر التي تجمع بين العلم الشرعي وفهم الواقع والأخلاق.

تكلمنا في مرة الماضية لابد أن الإنسان يجمع ثلاثة أركان:

١- المتصدر ،وهو أن يجمع ركن العلم الشرعي، فلا يتصدر قبل أن يكون عنده زاد عميق من العلم الشرعي.

٢- أيضًا فهم الواقع ومجريات الواقع، كما قلنا أن شعيبًا عليه السلام كان يعلم ماذا يخطط وماذا يفعل قومه بأتباعه {وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ}.. [الأعراف : ٨٦] لا تفعلوا كذا، هو يعلم ماذا يخططون.

٣- أيضًا الركن الثالث الأخلاق والتواضع وأن يخفض جانبه للمسلمين.

الإشكالية تحدث لو افترضنا مثلًا ..

- ◯ أن هناك دائرة كبيرة هي التي تجمع عموم المسلمين
- ◉ ودائرة في المنتصف الذي يتصدر لها هو الذي يقود و يوجه هذه الدائرة

فمن يدخل في هذه الدائرة الصغيرة؟.. الذين يملئون هذا المكان هم (الملأ) أو(النخب بالتعبير المعاصر)، وهم الذين يوجّهون الدائرة الكبيرة وهي(عموم المسلمين).

هذه الدائرة الصغيرة —غالبًا- هي فارغة منذ فترة، فكلما اقترب منها أحد وهو غير مكتمل هذه الأركان يشد الدائرة إلى صراعات جانبية.

فتجد إنسانًا غارقًا في الجزئيات فقط، لا يعلم مؤامرات داخلية ولا خارجية ولا يعلم احتياجات الناس ولا الواقع، مع شدة وغلظة يكسبها العلم البعيد عن العبادة والاحتكاك بالناس، فحينما يتصدر هو في هذه الدائرة المنتصف يجذب دائرة عموم المسلمين باتجاه هذه الجزئيات والصراعات الجزئية.

لذلك هؤلاء الأشخاص لا يصلحون للمكث في هذا المكان في المنتصف،- هو مهم جدًا جدًا لنصرة الدين - ولكن ليس في المنتصف، هو يصلح كعامل مساعد، هو يسد ثغرة علمية، يرد على شبهة، هو مهم جدًا.

والشخص الذي في المنتصف ليس من الشرط أن يكون أهلًا لفعل كل ما على الأطراف! هل أنتم متخيلون المشهد؟

عندنا دائرة في المنتصف المفروض من يتصدر لها يجتمع فيه الأركان الثلاثة التي ذكرناها، وطبعًا غير ذلك –هذا ما أظنه والله أعلى وأعلم–.

حينما يتصدر أحد الناس لقيادة المسلمين وهو ليس على الوعى الكامل ولا على العلم الكامل.. فهو يجذب ويأتى بهذه الدائرة إما في صراعات جزئية إذا لم يكن عنده علم بالواقع، أو لم يكن عنده علم شرعي إلى أن يقود الأمة إلى مهلكة، يدخل في معارك جزافًا بدون حسابات شرعية، ولا يعلم أصول شرعية لما يفعل، هو غارق في الواقع، لكن لا يدرى ما مراد الرب من هذا الفعل، هو لا يعلم، فيتحرك جزافًا هكذا بدون معطيات شرعية.

فهذه إشكالية نعانيها الآن! الكل يذوق هذا الألم، أنك أحيانًا تجد معارك طاحنة في جزئيات! أو قرارات يعني ظاهرها حماسة ولكن هي بعيدة عن تأصيل الشرع، ليس كل أمر حماسي يكون هو مراد الشارع، أبدًا!

فإذًا نحتاج إلى هذه الموازنة.

الخلاصة :

– أن ندعو لهم.

– نشعر بآلامهم.

– المتابعة لا تكون بالقدر الذى يؤدي إلى الإحباط واليأس.

أنت يكفيك المعرفة المجملة، إن لم تكن مؤثرًا، أو عندك زاد، أو تريد أن تنقل هذه القضية للناس، يكفيك المتابعة المجملة؛ لأن كثرة رؤية هذه المشاهد لقلب ليس لديه زاد من قوة الإيمان و الوحي –غالبًا– ما تعود عليه بأثر عكسي.

فأسأل الله –عز و جل– أن ينصرهم وأن يثبت أقدامهم وينصرهم على أعدائهم وأن يمدهم بمدد من عنده –سبحانه وتعالى–.

ولا نحزن فلقد أخبرنا ربنا –سبحانه وتعالى– {وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}.. [آل عمران : ١٤٠].

فمسألة أن يصطفي الله –عز وجل– هؤلاء شهداء عنده أمر عظيم بل يتمناه الإنسان.

كما أخبرنا النبي –صلى الله عليه وسلم–: (من لم يغز ولم تحدثه نفسه بالغزو مات على شعبة من شعب النفاق)[٣].

ومن جميل ما وصلنا عن نبينا –صلى الله عليه وسلم– أن : (من سأل الله تعالى الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء و إن مات على فراشة)، نسأل الله –عز وجل– أن يرزقنا الشهادة فى سبيله وأن يستعملنا لنصرة دينه.

نعود بإذن الله -عز و جل- إلى سورة الأعراف وإلى الحديث عن المجلس الحادي عشر .

كنا توقفنا عند الآية ٩٤، يقول ربنا –سبحانه وتعالى– بعد أن أخبرنا بقَصَص الأنبياء السابقين نوح عليه السلام ، وهود ، وصالح، ولوط ، وشعيب.

ثم أخبرنا الله –عز وجل– كيف أنه أَهْلك أَقْوامهم بعد أن رفضوا دعوة الأنبياء وتعاملوا مع الآيات التعامل الخاطئ ، وكما قلنا أن من محاور سورة الأعراف التعامل الخاطئ مع الآيات .

وأن الرسل يأتون بالآيات فكثير من الأقوام يُعرِضون عن هذه الآيات فيعاقبهم الله –عز وجل–، هذه السُّنَّة التى استمرت على مدار هذه الأقوام .

لكن هل هذه هي السُنة الوحيدة ؟ معاملة الله -عز وجل- للأقوام المُعْرِضين بالإهلاك العام، هل هذه هي السنة الوحيدة في المعاملة ؟ هل ليس هناك معاملة أخرى؟

ما هي سنة الله -عز وجل- العامة فى معاملة البشر ؟

و هل هذه السنة قد تختلف بعد بعثة موسى عليه السلام؟

هذا ما تسوقه إلينا و تُبَينه لنا الآيات القادمة بإذن الله –عز وجل– ..

يقول ربنا –سبحانه وتعالى– فى تَبْيين السُنة العامة في معاملة البشر:

[٣] - مَن ماتَ ولَمْ يَغْزُ، ولَمْ يُحَدِّثْ به نَفْسَهُ، ماتَ علَى شُعْبَةٍ مِن نِفاقٍ..

الراوي: أبو هريرة | المحدث: مسلم | المصدر: صحيح مسلم
الصفحة أو الرقم: ١٩١٠
خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ وَقَالُوا}.. [الأعراف : ٩٤] -أى قال الأقوام-

{قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}.. [الأعراف : ٩٥]

يخبرنا ربنا -سبحانه وتعالى- أن كثيرًا من الأقوام هم على المعاصي والشرك والكفر ، هل يعاجلهم الله بالعقوبة؟

.. أبدًا {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا}.. [الإسراء: ١٥]

أول شيء يُرسل الله -عز وجل- إليهم رسول ، فقد يكون أقوام اطلعوا على ما حدث للأقوام السابقين من عذاب بسبب كفرهم وشركهم وبالرغم من ذلك يُرسل الله -عز وجل- إليهم رسولًا حتى يذكرهم ، حتى لا يأخذهم الله -عز وجل- بغتة {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا}.

الخطوة الأولى: {وَمَا أَرْسَلْنَا} إذًا ففي البداية الإرسال.

الثانية :{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ} [في] تفيد التوغل، أي أن الرسول وصل إلى كل من في القرية ، أو وصلت دعوته ، لا يُشْتَرَط وصوله الشخصي،[في] للانغماس والتوغل.

الثالثة: {فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ} مَفَاد هذا الكلام أنه يوجد محذوف تقديره أن الله -عز وجل- أرسل الرسول فأعرض الناس عن الرسول .

كان من الممكن - وهو لم يظلم أحدًا -سبحانه وتعالى -- بمجرد أن أعرضوا بعد إرسال الرسول أن يعاجلهم بالعقوبة!

الله -عز وجل- أرسل الرسول إلى الأقوام ، الله -عز و جل- لم يُعَاجلهم بالعقوبة ابتداءً بل أرسل إليهم الرسول فأقام عليهم الحُجة وقامت عليهم البينة، قامت الحُجة عليهم، فأعرضوا وكذبوا الرسول، كان من المتوقع بمجرد الإعراض أن تنزل العقوبة وينزل العذاب عليهم.

ولكن الله -عز وجل- لم يُعَاجلهم بالعقوبة وإنما سلط عليهم الأقدار بحيث تكون الآيات المرسلة إليهم آيات من الرسول (شرعية) وآيات قدرية.

آيات شرعية مع الرسول وبينات، وآيات قدرية تحدث لهم، وباجتماع الآيتين يرجع الناس إلى ربهم .

الرسول يُحذرهم من غضب الله -سبحانه وتعالى- إن هم أعرَضوا، وفى نفس الوقت الله -عز وجل- يُضيّق عليهم الأرزاق ويَسوق إليهم الأمراض حتى يرجعوا إليه -سبحانه وتعالى- .

فبعد أن أعرضوا، -لذلك هناك محذوف قدره كثير من المفسرين: وما أرسلنا فى قرية من نبي إلا أعرَضوا- ،

فبعد أن أعرضوا وكذبوا {أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ}، انتبه إلى كلمة {أَخَذْنَا أَهْلَهَا} لم يقل [أرسلنا عليهم البأساء والضراء] بل {أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ} أي هم فى قبضته -سبحانه وتعالى- ، يفعل فيهم ما يشاء.

طول الأمل والأمد عند الناس يُشْعرهم أنهم خرجوا من قبضته، الله -عز وجل- قادر، الله -عز وجل- من ورائهم محيط -سبحانه وتعالى-. فكثيرًا ما يُطْغِي الإنسانَ الإمهالُ، الإمهالُ يُطغي كثيرًا من الناس .

فأحيانًا قد يفعل شخصًا معصية فلا تنزل العقوبة ، فيكرر المعصية فلا تنزل العقوبة ، فيَسْتمرئ الوضع ويرى أنه عادي ، هو نَسِي أن الدنيا دار بلاء وليست دار جزاء، وأنه يَتَمَحض الجزاء الكامل فى الآخرة وليس فى الدنيا.

قد يُعجل الله -عز وجل- العقوبة لبعض الناس فى الدنيا كما حدث مع هؤلاء الأقوام ، كما يحدث مع غيرهم من أفراد حتى فى أمة النبي -صلى الله عليه وسلم- ، لكن الأصل فى الدنيا أنها دار بلاء وأن الآخرة هي دار الجزاء .

فحينما يكرر الإنسان المعصية ولا ينزل عليه البلاء يَغْتَر أنه بعيدًا عن قبضة الله، عن قدرته ، فيستمر فى المعصية.

هذا الأمر أو هذه القصة أحد المرْويات - ستأتي معنا إن شاء الله -عز و جل- أن نكمل سورة الأعراف - في قصة أصحاب السبت، قيل أحد الروايات أن أحد الناس اجترأ واصطاد يوم السبت جهارًا، وقيل غير ذلك من باب الحِيَل كما سيأتي أنهم احتالوا فوضعوا الشباك يوم الجمعة ورفعوها يوم الأحد، وقيل أن منهم من اجترأ واصطاد يوم الأحد، ففر الناس من حوله ، من كانوا يسكنون حوله فروا اعتقادًا منهم بنزول العذاب ، فلم ينزل العذاب!

فاصطاد يوم السبت أيضًا! فبدأ الناس يَشموا رائحة شَيّ الحيتان، فعادوا و سكنوا بجواره ، بعد ما اطمئنوا من عدم نزول العذاب فاصطادوا معه.

أحيانًا كثيرة مما يُجرئ الإنسان على المعصية هو تأخير نزول العذاب!

فلما أرسل الله -عز وجل- إليهم الرسول فأعرضوا، فانظر إلى التعبير القرآني {أَخَذْنَا أَهْلَهَا} هم في قبضته -سبحانه وتعالى-.

{أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ} نَوّع الله -عز وجل- و صَرّف عليهم من أصناف البلاء و العذاب حتى لا يقولوا إن هذا البلاء كان مجرد مشكلة صحية ، أو أنه كانت مشكلة اقتصادية وحسب، لا، بالبأساء والضراء.

قال بعض أهل العلم:

البأساء : في الأموال و الأحوال العامة.

والضراء : في الأبدان .

وقال بعض أهل العلم بالعكس. لكن من اختار أن الضراء في البدن رجع إلى قول أيوب عليه السلام: {إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين} و كان يقصد ابتداءً الضر في بدنه، و إن كان الضر الذي أصاب أيوب -للرد على هذا القول- كان في أمواله و بدنه وأولاده وغير ذلك.

فالشاهد أن البأساء و الضراء إشارة إلى تنوع صنوف البلاء والعذاب التي نزلت عليهم .

لماذا؟

هذا ليس عذاب استئصال ، هذا كان عذاب تأديب.

إذًا ليس كل ما ينزل من البلاء يكون إهلاكًا، قد يكون إهلاكًا كما حدث مع الأمم السابقة ، قد يكون تأديبًا، قد يكون لرفع الدرجات، فسنن الله في المعاملة تختلف، كما سيأتي الآن الفارق بين كلمة السراء وكلمة البركات.

الله -عز وجل- عامل المستدرجين بالسراء لكن المؤمنين أعطاهم بركات.

الظاهر قد يكون واحدًا، أن هذه نعمة وهذه نعمة، ولكن المعاملة تختلف، سنذكر الآن أن المعاملة تختلف من أقوام لأقوام، حتى لو الظاهر أن ما ينزل هذا بلاء أو هذه نعمة ، لكن الحكمة من فعل الله -سبحانه وتعالى- تختلف من قوم إلى قوم.

{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ}.. [الأعراف : ٩٤] لماذا؟ {لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ}

إذًا هذا لم يكن عذاب إهلاك ، ليس استئصال، مثلما تضغط على إنسان ثم تترك له مفر حتى يلجأ إليه. {لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ} حتى يجأروا إلى الله -عز وجل- و يتضرعوا إليه -سبحانه وتعالى-.

انظر إلى رحمة الله -سبحانه وتعالى- :

لم يعاجلهم بالعقوبة ، أرسل إليهم رسول ، أعرضوا و استمروا في الإعراض، فأرسل عليهم هذه الآيات القدرية من البأساء و الضراء حتى يلجأوا إليه، فلم يلجأوا إليه .

بمعنى أنه قبل إرسال الرسل ، وبعد إرسال الرسل ، وبعد البأساء والضراء ، كل هذه الأمور لم تجعلهم يلتفتوا وينطلقوا ويفزعوا ويفروا إلى الله –سبحانه وتعالى–.

فماذا فعل الله بهم ؟ ، هل عاجلهم بالعقوبة ؟ أبداً بل استدرجهم .

{ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا}.. [الأعراف : ٩٥]

بدلنا مكان السيئة: انظر هذه الأفعال حينما يقرأها المؤمن يُوقِن أن الله يفعل ما يشاء، كلمة "أخذنا" و "بدلنا"، الله –عز وجل– يفعل ما يشاء.

كما تقرأ مثلا {فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ}.. [الأنبياء : ٨٤] كل الضر الذي أصاب أيوب، ابتلاء في جسده ثمانية عشر عامًا، وفي ماله وفي أولاده وفي زوجه، قال عنه ربنا بكلمة {فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ}.

تغيير الأحوال هين على الله –سبحانه وتعالى– ، كل شيء عليه هين –سبحانه وتعالى–، فلا يَستطيل الإنسان الطريق، ولا يستبعد الإنسان النصر، ولا تبديل الأحوال، الله –عز وجل– يبدل الأحوال إذا أراد –سبحانه وتعالى–.

{ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ} أي التي كانت تسوؤهم، ما هي؟ البأساء والضراء،{الْحَسَنَةَ}.

إذًا من الذي أنزل البأساء و الضراء عليهم؟ الله –سبحانه وتعالى–، ومن الذي رفعها عنهم؟ الله –سبحانه وتعالى–.

هم لم يعرفوا هذه الحقيقة و لم يوقنوا بهذه العقيدة.

{ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ} الحسنة: لم يقل الله –عز وجل– البركات، الحسنة أي التي تسرهم، هو سعيد، الحسنة أي أنه يرى نفسه سعيدًا، فوصفها الله –عز وجل– بالحسنة ولم يقل أنها بركة؛ لأن بركة أي هي زاد من عنده –سبحانه وتعالى–؛ لأن البركة تأتي منه، البركة لا تأتي إلا من الله –سبحانه وتعالى–، فلو وصف الله –عز وجل– شيئًا بأنه بركة، فتكون من عنده – سبحانه وتعالى– خيرًا.

{ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ} كم مكثوا في موضوع الحسنة هذا؟ أي عندما انتهت قضية الابتلاءات و الأمراض و التخلف و التأخر الاقتصادي، ثم جاء التقدم الاقتصادي و الرفاهية و الصحة {الْحَسَنَةَ} ، استمر إلى متى؟ {حَتَّىٰ عَفَوا}

جماهير المفسرين على أن "عفوا" معناها كثروا –هم أنفسهم–، أي كأولاد و قوم أصبحوا كثيرين، و كثرت أموالهم، أي أصبحوا في كثرة من الأولاد و الأموال و الصحة، ف "عفوا": جمهور المفسرين على أن معناها الذي رُوي عن السلف، كثروا وكثرت أموالهم.

{قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ}.. [الأعراف : ٩٥]

قبل أن نشرح قولتهم، نتكلم أولا عن "عفوا" : حقيقةً لفظة عجيبة وتحتاج إلى تحقيق، وحقيقةً لم أصل فيها إلى شيء يشفي الغليل، لكن ما وجدتُه كان أيضًا طيبًا في كثيرٍ من الكتب.

في كتب في اللغة تحاول أن تبحث عن أصل الكلمة، فممكن كلمة واحدة يكون لها استعمالات كثيرة، لكن هناك أصل يجمع كل هذه الاستعمالات؛ مثلما قيل مثلًا: البَر غير البحر –البَر الذي عكس البحر–، و من البِر الاتساع في العمل و غير ذلك، النهر مثلًا: الشق الموجود في الأرض يجري فيه الماء أو النهر النفسي، { لَا تَنْهَرْهُمَا}.. (الاسراء ٢٣) أو النهار فقال أصل الكلمة هو الشَق، فهناك كتب تبحث عن أصل الكلمة.

ففوجئوا أن كلمة العفو تأتي أحيانًا بمعنى(**الزيادة**) {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ }.. [البقرة : ٢١٩] أي ما زاد وفَضُل عن أموالهم، وأحيانًا تأتي بمعنى (**المسامحة**)، وهذا أصل استعمال الكلمة، تطلب من الله أن يعفو عنك وأنت تعفو عن الذي أساء إليك.

المهم أنهم حاولوا؛ الأصفهاني وابن فارس وحتى من المعاصرين الشيخ حسن جبل، كل هؤلاء حاولوا أن يبحثوا عن أصل الكلمة.

*فقال الأصفهاني: أن أصل الكلمة أن (**تقصد إلى الشيء**)، أنت تختار أن تفعل شيئًا ثم بعد أن تختار فإنك تقصد إلى الشيء أو أن تتركه؛ أنت اخترت أن تتركه بالرغم من أنك تعرفه، مثل أن تكون عالما بذنب فلان وتعرف أنه أخطأ فيك، ثم تعفو عنه بعد أن قصدت إليه، بعد أن عرفت، وأنا موقن ماذا فعل ثم أعفو عنه، *وقيل:(**القصد بالرعاية**.)

*وبعضهم قال لا، عكس القصد! العفو يأتي بمعنى (**الترك**)! فمثلًا عندما قال النبي –صلى الله عليه وسلم– : (أعفوا اللحى)[٤] أي اتركوها فتطول اللحية و تكثر؛ فأعفوا اللحى ليس معناها أنك تسامح لحيتك! لحيتك لم تفعل شيئًا لكي تسامحها، أعفوا بمعنى ماذا؟ الترك.

[٤] - اعفوا اللّحى واحْفُوا الشواربَ.

فقالوا أن العفو بمعنى الترك، و هذا اختاره بعض اللغويين أن أصل الكلمة: الترك، فأن يعفو الله –عز وجل– عنك أي يترك الذنوب.

لذلك هناك مقارنة بين العفو والغفور:

***بعض أهل العلم قال المغفرة أعلى من العفو**، لماذا؟ العفو هو مجرد الترك، لكن المغفرة: ستر أثر الذنوب عليك، الذنوب لها أثر ضار عليك؛ لأن المِغْفَر يرتديه الإنسان؛ ليحمي نفسه في الحرب من ضرب السيف؛ فكأن أثر الذنوب عليك كأثر ضرب السيف على الوجه في المعارك، فأنت تحتاج من يمنع عنك أثر الذنوب فهذه المغفرة، أما العفو فمجرد ألا يعاقبك، عفو أي ترك.

***وقال البعض لا**، اسم الله العفو، العفو هنا آثار الأقدام حينما تترك فتأتي عليها الرياح تغطيها فلا يبقى لها أثر، فقال بعض أهل العلم العفو بمعنى أن يُمسح الذنب تمامًا، إنما المغفرة مجرد التغطية.

فالعفو: أن تأتي يوم القيامة و هذا الذنب أصلًا ليس مكتوبًا في صحيفتك.

المغفرة : تجد الذنب مكتوبًا ولكن لا تُسأل عنه، يذكرك الله –عز وجل– به ثم يقول: أتذكر ذنب كذا ذنب كذا، ثم يقول الله –عز وجل–: قد عفوت عنك ،أما العفو أن يعفو عنك في الدنيا فلا يُكتب الذنب أصلًا!

هذه إحدى توجيهات بعض أهل العلم في الفارق بين العفو والمغفرة.

بعد أن عرفنا العفو، أن أعفو عن أحد أي أتركه، أو ما ينفقون من العفو: المال الذي أتركه ولا أحتاجه هذا أخرجه لله، ما علاقة هذا بالجملة التي معنا هنا {حَتَّى عَفَوْا}..(الأعراف :٩٥) ؟

قال: تركهم الله –عز وجل– وعاملهم معاملة المستدرج لهم، تركهم! هل تريدون دنيا؟ خذوا دنيا، هل تريدون الأسباب؟ خذوا أسبابًا، هل تريدون تقدمًا؟ خذوا تقدمًا. تركهم الله –عز وجل–!

و كأن الإنسان الذي لا يُحاسب على أعماله ولا يُذَكَّر في الدنيا بأخطائه ويترك –يفعل الخطأ ويُترك– هذه معاملة المستدرَج! الله –عز وجل– يستدرجهم من حيث لا يعلمون.

الراوي: عبدالله بن عمر | المحدث: البيهقي | المصدر: السنن الكبرى للبيهقي | الصفحة أو الرقم: ١٤٩/١ | خلاصة حكم المحدث: روي من طريق آخر | التخريج: أخرجه البخاري (٥٨٩٢) بنحوه، ومسلم (٢٥٩)، والترمذي (٢٧٦٣) باختلاف يسير، والنسائي (٥٠٤٦) واللفظ له

فأن يتركك الله في الدنيا، ألَّا تشعر بضيقٍ في صدرك لمعصية فعلتها، ألَّا تشعر بعقوبة في بدنك ومالك لمعصية فعلتها، هذا أمر خطير، عندما يجد الإنسان نفسه في هذه المرحلة لا بد أن يتدارك نفسه..!

إذًا يوجد عفو عن الذنوب، ويوجد عفو أن يتركهم الله، {حَتَّى عَفَوْا} ؛ تركهم الله -عزَّ وجلَّ-، تُركوا {نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى}.. [النساء : ١١٥] أتريدون دنيا؟ خذوا دنيا، تركهم الله -عزَّ وجلَّ- من المعاملة، فهذا الذي قاله بعض المتأخرين وحاول أن يربط.

الإشكالية التي ترِد عليه، سبحان الله كنت في حلِّه، كان هناك مناقشة وأرسلت هذا السؤال لمجموعة متخصصة في اللغة والتفسير من أفاضل أهل العلم الموجودين في مختلف العالم، أرسلت إليهم السؤال وتناقشنا، وسألتهم: أصلًا (عَفَوا) الفاعل (هم) لكن (تُركوا) الفاعل (الله) -عزَّ وجلَّ-، فقيل هذا يسمّونه لازم ترك الله، أي هم زادوا لأن الله تركهم، وما كانوا لتزداد أموالهم لولا أن الله تركهم، فكلمة (عفوا) أي أصبح معفي عنهم، تُركوا.

كما قلت لكم بحثت كثيرًا في كتب اللغة، ولم أجد ما يشفي غليلي، وفي ظني أن هذه اللفظة تحمل معنى أعمق من ذلك، لكن لا يتعجَّل الإنسان دائمًا للوصول إلى المعنى الذي يريده ولا يقوم بليّ العنق، يتركها، الله -عزَّ وجلَّ- يفتح على من يأتي ليجد في هذه اللفظة أمرًا أعمق من ذلك.

ما المعنى الأصلي؟ حتى كثروا

نحن نحاول أن نصل إلى الرابط بين (كثروا) وعفوا، لأن السلف كانوا فقهاء في اللغة؛ فكان يشرح اللفظة بلازِمها، أي ستبحث عن العفو ستجد معنى عَفَوا (كثروا)، نحن نبحث كيف وصلوا لهذا المعنى، لا نردّ قولهم، نريد أن نعرف العرب كيف كانوا يستعملون (العفو)، وكيف استطاع السلف أن يصفوا لنا أن (عفوا) بمعنى كثروا، نريد أن نعرف هذا الرابط، وهذا من دقائق المباحث اللغوية، -وأنا آسف أني استطردت في هذا الموضوع ، لكن حتى لا نكرره-، مبحث أصول اللفظة اللغوية مبحث دقيق ويحتاج إلى طول باع في اللغة وكثرة معاملة مع الألفاظ، هذا باب دقيق.

بل قامت الآن دراسات كثيرة -ولا سيما في المغرب-، أفردوا دراسات في دراسة المصطلحات القرآنية، الدكتور الشاهد البوشيخي - أسأل الله أن يبارك في عمره- كان معلم الدكتور فريد الأنصاري -رحمه الله-، وقاموا بجهود ضخمة لدراسة كل مصطلح، مصطلح (الأمة) مثلًا في القرآن، مصطلح (الجاهلية)، تجد دراسات الآن يدرسون مصطلحات القرآن.

{حَتَّى عَفَوْا}..(الأعراف :٩٥) عرفنا المعنى أن الله -عزَّ وجلَّ- لم يعاجلهم بالعقوبة، بمعنى أنهم في خلال فترة الحسنة، يعني في خلال فترة الرَّخاء يرتكبون معاصي ثم لا يعاجلهم الله بالعقوبة!.

لأن هناك من يقول: الآن أنت تقول أن الذي يخطئ يعاقبه الله، ويوجد آيات في القرآن تقول هذا {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ}.. [العنكبوت : ٤٠] ، وأن الأقوام السابقين أذنبوا فعاجلهم الله بالعقوبة، كيف إذًا نجد أناسًا الآن يعيشون وأقوامًا يذنبون ولا يعاجلهم الله بالعقوبة؟

نقول: هذا استدراج.

من أين أتيت بهذا الكلام؟

اقرأ هذه الآية {حَتَّى عَفَوْا}(الأعراف :٩٥)؛ تركهم الله -عزَّ وجلَّ-، وبالرغم من أن الله -عزَّ وجلَّ- يخبرنا في نفس الآية أنه أعطاهم من النعيم الدنيوي، {بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ}..(الأعراف :٩٥) أعطاهم ثم لم يعاجلهم بالعقوبة.

حتى إذا وصلوا إلى مرحلة سورة يونس: {وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا}.. [العنكبوت : ٤٠] عندما يصل إلى قمة الطغيان وادعاء الربوبية وأنه قادر على كل شيء، وأنه يدَّعي أنه ربهم الأعلى وأنهم سيطروا على كل المفاصل والأسباب الدنيوية.. {أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا}.. [العنكبوت : ٤٠] ، فهنا -في سورة الأعراف- {فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}.. [الأعراف : ٩٥].

حينما يصلوا إلى مرحلة ماذا؟ حينما يصلوا لمرحلة أن الكل ليس هناك أمل في إيمانه، الأجمع قالوا: {وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ}.. [الأعراف : ٩٥] ، ماذا يعني {قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ}؟ ما المقصد من كلامهم؟

هل مسَّ آباءهم الضراء والسراء؟ مسَّ أم لم يمس؟ نعم حدث.

إذًا وما المنكر في كلامهم؟ لماذا جاء التعقيب بعد هذه الكلمة: {فَأَخَذْنَاهُمْ}؛ وكأن انتشار هذه الكلمة بينهم كانت من أسباب أن أخذهم الله -عزَّ وجلَّ-؟

لأنهم لم ينسبوا هذا إلى الله؛ فكلمة {مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ}(الأعراف :٩٥) معناها: أن ما حدث لآبائنا مجرد تقلُّب في صروف الدهر، تغيرات كونية تحدث، آباؤنا كان عندهم الضراء ثم جاء السراء، لا تدخُّل للرب في هذا، لا تدخلوا الله في كل شيء!، ما حدث تغير طبيعي، حدث زلزال، حدث إعصار وانتهى الأمر، الرياح التي جاءت على قوم هود كانت رياح عابرة، لا يلزم أن يكون الله من أرسلها عليهم، {مَسَّ آبَاءَنَا} لذلك نسبوا الفاعل {الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ}(الأعراف :٩٥).

ممكن إنسان يقول: {مَسَّنِيَ الضُّرُّ}..(الأنبياء ٨٣) لكن يقولها تأدبًا مع الله، لا ينسب ذلك إلى أن المرض يتحرَّك لوحده -كما قال أيوب- لكن هؤلاء لماذا قالوها؟ قالوها استخفافًا، وأن الأمر يحدث اتفاقًا، أو بالصدفة، لا تدخلوا معاملة ربنا في كل شيء..! مع أن الله قال: {أَخَذْنَا أَهْلَهَا}(الأعراف :٩٤)، وقال: {بَدَّلْنَا}(الأعراف :٩٥)، نسب الله التغيرات له، هو الذي فعل ذلك، التغيرات الأرضية، الله -عزَّ وجلَّ- هو الذي فعل بهم ذلك.

هم يقولون: "لا، مُطِرنا بنَوْءِ كذا"؛ يقصدون أن النَّوء هو الذي يفعل ذلك، يقصدون لا تدخُّل للرب في نزول المطر، أنت قد تقول تلقائيًا: "السماء تمطر" ولكنك لا تقصد أن السماء تستقلّ بالفعل بعيدًا عن الله، إنما هي بأمر من الله.

هناك أناس يعتقدون أن كل شيء يحدث بأسباب أرضية لا تدخُّل لله في ذلك، فحينما يصل المجموع إلى هذا القول ويستمرِئون الوضع ويعيشوا سنين على هذا، يأتيهم العذاب! لماذا؟ لأنه لم يعد يوجد أمل بالتغيير؛ لا الضراء رجّعتهم ولا السراء رجّعتهم، بدَّل الله الأحوال عليهم، لا الضراء جعلتهم يتضرَّعون ولا السَّراء جعلتهم يشكرون، فهؤلاء استحقوا نزول العذاب عليهم، {فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}.. [الأعراف : ٩٥].

إذًا كلمة: {مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ}(الأعراف :٩٥) ينسِبون تغير الأحوال وتغيرات وتقلبات الدهر، ينسبونها إلى الطبيعة، إلى أسباب أرضية، بعيدًا عن تدخل الله -سبحانه وتعالى-، وهذه شبهة نعيشها الآن، وكان في درس كدة "جلسة عن الحريق الذي حدث في إسرائيل، أو في أرض فلسطين المحتلة -إن صح التعبير-"، وكيف أن أناس نفوا أن هذا يحدث بتقدير من الله، وأي مصيبة تحدث الآن ينفون أن هذا يحدث بتقدير الله -سبحانه وتعالى-!

يقول ربنا -سبحانه وتعالى-: {ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}.. [الأعراف : ٩٥] .

قلنا أن كلمة {مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ}(الأعراف :٩٥)، الكلمة كأمر واقعيّ حدث، لكن ما هو تفسيره؟

يعني مثلا يقول ربنا -سبحانه وتعالى- في سورة الفجر: {فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ}.. [الفجر : ١٥] ربنا قال أنه أكرم الإنسان، {فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ}.. [الفجر : ١٥] ، ثم قال بعدها: {كَلَّا} أي هذا التفكير خاطئ، ولكن الله قال أنه أكرمه؟ {فَأَكْرَمَهُ} الفاعل الله -عزَّ وجلَّ-، الضمير المستتر الذي يعود على لفظ الجلالة الله -سبحانه وتعالى- أكرم، والهاء الإنسان، وهذا الإنسان نفسه قال {رَبِّي أَكْرَمَنِ}، فأين الخطأ إذًا؟ الخطأ أنه نسي كلمة [ابتلاه]، {فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ ربه فأكرمه ونعمه}.. [الفجر : ١٥].

فهذه التغيُّرات جاءت للإبتلاء، لم تحدث صدفة واتفاقًا هكذا ليس لها حكمة وغاية!، بل حدثت بتقدير الله -سبحانه وتعالى-؛ حتى تعودوا إلى ربكم.

هم يقولون: {مَسَّ آبَاءَنَا..} وانظر إلى تعبيراتهم؛ هذا خطاب إعلامي لكي يصرف الناس عن العودة إلى الله؛ أول شيء قالوا {مَسَّ} لم يعودوا يتذكرون الضراء، نسوا الألم، {مَسَّ} شيء بسيط!

ثم قدَّموا الضراء على السراء؛ أي أنها كانت بعض الضراء ثم ذهبت، ولن تتكرر مرة أخرى، {مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ} ذهبت الضراء وعرفنا أسباب الضراء من الأمراض ونعالجها، ومن التأخر ونعالجه، لم نعد بحاجة إلى تدخل قدرة غائبة -كما يقول هؤلاء الأغبياء!-.

لذلك دائمًا الملاحدة يقولون: وصلنا لمرحلة من التقدم لم نعد نحتاج فكرة [ربنا]-هكذا يقول هؤلاء الأغبياء! أن فكرة [ربنا] هذه عندما كان هناك نوع من التخلف في العلم؛ لكن عندما يتقدم العلم لا نحتاج لربنا! هذا العلم الدنيوي الذي يؤدي إلى الطغيان؛ لذلك أول سورة نزلت {اقْرَأْ} ثم قال ربنا بعدها {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى}.. [العلق : ٦] وقال في آخرها {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ}.. [العلق : ١٩].

فكلمة اقرأ إما أن تؤدي إلى الطغيان، أو تؤدي إلى معرفة عظمة الرب -سبحانه وتعالى- {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}.. [فاطر : ٢٨] فكلما ازداد الإنسان علمًا دنيويًا ودينيًا، المفترض أن يزداد الإنسان إخباتًا وتذللًا وتضرعًا لله -سبحانه وتعالى-، لا يزداد طغيانًا.

فهؤلاء حين قالوا {مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ} [الأعراف : ٩٥] -الضراء والسراء هي الفاعل-، فهم يرون أن هذا يحدث بدون قدرة الله، لذلك النبي ﷺ أخبرنا قال: يقول الله -سبحانه وتعالى- : (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر) الكافر بقدرة الله الذي يقول "مُطرنا بنوء كذا" يقصد أن هذا النوء جاء بالمطر استقلالًا بعيدًا عن قدرة الله.

{وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً}(الأعراف :٩٥) لم يعد هناك أمل في أن يعودوا، والعذاب عندما يأتي بغتة يكون أشد إيلامًا {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}.

ثم قال ربنا -سبحانه وتعالى- : هؤلاء الأقوام لو أنهم {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا}.. [الأعراف : ٩٦] آمنوا بما أنزله الله -عز وجل- إليهم من أوامر، واتقوا النواهي، {لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ} انظر لم يقل فأنزلنا، فتح البركات عندما تنزل من الله -عز وجل- تكون عظيمة، {لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ} وكلمة الفتح كأن كان هناك شيئًا مغلقًا بسبب الذنوب، فكأن الذنوب تغلق أبواب النعيم الذي ينزل على الإنسان {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ}.. [فاطر : ٢] (افتح لي أبواب رحمتك) . {لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ} على تفيد الشمول.

{بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}.. [الأعراف : ٩٦] سمى الله -عز وجل- النعيم هنا بركة، ويحاطون بالنعيم من السماء والأرض، والبركة فيها معنى الاستقرار والملازمة، وذلك عكس الحسنة التي أزيلت بإهلاكهم، بركة من الإبل بتبرك أي تلازم المكان، والبِرْكة فيها ركود واستمرار، وكنت ذكرت بالتفصيل معنى البركة واستعمالاتها اللغوية وأصلها اللغوي في درس [مرحلة الفرقان] في شرح {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ }.. [الفرقان : ١] هناك استمرار وخير عظيم وملازمة. فالنعيم الذي يأتي لأهل الإيمان يختلف عن النعيم الذي يأتي للمستدرجين {لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}..[الأعراف : ٩٦] ، {وَلَكِنْ كَذَّبُوا} فأعرضوا {فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}.. [الأعراف : ٩٦] باء السبب؛ أي بسبب معاصيهم.

*هنا سؤال:

يقول الله -سبحانه وتعالى-: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ}.. [الأعراف : ٩٦] فكيف يكون هناك أناس مؤمنين يعيشون في آلام؟!

أحد الحضور يجيب: "بسبب معاصي الآخرين".

الشيخ يرد عليه: هذه أحد التوجيهات.

هنا يقول الله -سبحانه وتعالى-: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى}..[الأعراف : ٩٦] أي أن النعيم الجماعي يحدث عندما يكون هناك إقبال جماعي على الدين؛ لكن لا يصح أن نأخذ بعض سنن الله ونضرب بها السنن الأخرى، لأن سنن الله -سبحانه وتعالى- تعمل مجتمعة، وذكرت هذا في آخر سورة فاطر وأكرره، سنن الله -عز وجل- تعمل مجتمعة، فلا يصح أن تأخذ آية وتنزعها من بقية الآيات، لا، هناك آيات أخرى تقول: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً}.. [الأنفال : ٢٥] من الممكن أن مجموعة خاصة يظلموا فتنزل عليهم عقوبة، وقد تكون العقوبة التي نزلت على بعض القوم رفعة لدرجاتهم ووبالًا على غيرهم؛ كمثل من رأى الآن بإذن الله -عز وجل- ما يحدث الآن في أهل حلب، أسأل الله أن يرفع درجاتهم وأن يعذرنا بسبب تقصيرنا.

فإذًا لا يصح أن تأخذ جزئية من الدين وتترك الباقي؛ الله -عز وجل- يخبرنا أن الكل لابد أن يُشارك، حتى يكون النعيم عام لا بد أن يكون الكل أو الأغلب -بالطبع ليس كل الأفراد؛ لوجود أناس سترتكب المعاصي- أن الأغلب يتجهون إلى الطاعة والتحاكم إلى الشرع، وأن شرع الله -عز وجل- يُطبق، لذلك كل جزئية من الدين تقل يكون هناك عذاب كالحديث الطويل المشهور للنبي ﷺ : (يا معشر المهاجرين خمس خصالٍ أعوذ بالله أن تدركوهن..)[٥] لما قال النبي ﷺ عندما تنحوا الشرع تنزل

[٥] - يا معشرَ المهاجرين خصالٌ خمسٌ إن ابتُليتم بهنَّ ونزلنَ بكم أعوذُ باللهِ أن تُدرِكوهنَّ لم تظهرِ الفاحشةُ في قومٍ قطُّ حتَّى يُعلنوا بها إلَّا فشَا فيهم الأوجاعُ الَّتي لم تكنْ في أسلافِهم ولم ينقُصوا المكيالَ والميزانَ إلَّا أُخِذوا بالسِّنين وشِدَّةِ المُؤنةِ وجَورِ السُّلطانِ ولم يَمنعوا زكاةَ أموالِهم إلَّا مُنعوا القَطْرَ من السَّماءِ ولولا البهائمُ لم يُمطَروا ولا نقضوا عهدَ اللهِ وعهدَ رسولِه إلَّا سلَّط عليهم عدوًّا من غيرِهم فيأخذَ بعضَ ما في أيديهم وما لم تحكُمْ أئمَّتُهم بكتابِ اللهِ إلَّا جُعِل بأسُهم بينهم.
الراوي: عبدالله بن عمر | المحدث: المنذري | المصدر: الترغيب والترهيب | الصفحة أو الرقم: ١٦/٢ | خلاصة حكم المحدث: [إسناده صحيح أو حسن أو ما قاربها] | التخريج: أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٤٦٧١)، والحاكم (٨٦٢٣) باختلاف يسير.

عقوبة كذا، عندما تنتشر الفاحشة تنزل عقوبة كذا، عندما تمنعوا الزكاة تنزل عقوبة كذا، إذًا كل جزئية من الشرع تغيب تنزل عقوبات.

فالأمة الإسلامية حينما تُعامل كأمة واحدة وجزء كبير من الأمة الإسلامية ينحي الشرع، ويمنع الزكاة، ويحارب أهل الإيمان، فكذلك يوجد عقوبات عامة أيضًا تنزل، لا يُشترط الترابط السريع الخاص بين فاعل المعصية وبين العقوبة.

لذلك كان الشيخ الطريفي –فك الله أسره– دائمًا يقول: "العقول البسيطة الساذجة هي التي تبحث عن المعاملة الواحدة المطردة".. معنى كلامه: أن دائمًا العقول البسيطة تريد معاملة واحدة فقط، نعصي ينزل عذاب عام، نطيع ينزل نعيم عام... هو لا يريد معاملات مختلفة؛ أن أناس قد تطيع فينزل عليها بلاء لرفعة الدرجات كما حدث في شِعب أبي طالب مع النبي ﷺ، ويكون اختبارًا للتمحيص من سيستمر في هذا الطريق؟، هل سار في الطريق لأجل الدنيا أم لأجل نصرة الدين؟

هو لا يستطيع أن يستوعب مثل هذه الاختلافات، لا يستطيع أن يستوعب أن هناك أناس عصاة منعمين وأناس طائعين ويكونون في بلاء! هو لا يستطيع أن يُفرّق، هو يريد علاقة واحدة وتكون مطردة في كل الأحوال؛ هذه لأصحاب العقول البسيطة الساذجة.

لكن المؤمن يعلم أن أفعال الله –عز وجل– لها حِكَم، وتختلف من مكان لمكان، لا يُسارع باتهام الرب؛ البعض لديه سوء ظن بالله، أسرع شيء عنده هو إساءة الظن بالله، يقول لماذا فعل الله هذا؟ لماذا يتركهم الله؟، لماذا أنزل الله كذا؟!

كثيرًا ما يُسارع في إساءة الظن في مولاه –سبحانه وتعالى– حاشاه –سبحانه وتعالى–، المفترض أن تقول {لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}...(الأنبياء:٨٧) ، تُنزِّه الله –عز وجل– عن النقص.

فيقول الله –سبحانه وتعالى– لهؤلاء الذين استمروا في النعيم وأعرضوا عن الشرع {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ}.. [الأعراف: ٩٧] ؟

تجد أن كلمة الأمن تكررت ٤ مرات {أفأمن أهل القرى}.. [الأعراف: ٩٧]،{أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى}.. [الأعراف: ٩٨] ،{أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ}.. [الأعراف: ٩٩].

تجد بالفعل أن طول فترة النعيم يؤدي للإحساس بالأمن والطغيان، بمعنى أنه يشعر بالأمن، فيتساءل: "من أين سيأتي العذاب؟ أمِن بقية الناس؟ خدعتهم بالإعلام، أمِن الصحة؟ عندي أفضل أطباء في العالم، وبنيت أعلى أسوار تحيط بالقصر!".

هو يعتقد أن ترتيباته ستمنع عنه العذاب والفناء، لذلك قال الله –سبحانه وتعالى–: {فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا}.. [الحشر: ٢]. فاليهود قالوا: من أين سيأتي لنا المؤمنون؟ عندنا الأسوار العالية والجنود والسلاح، {فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ}[الحشر: ٢].

هذا التفكير هو تفكير صاحب الجنتين في سورة الكهف عندما قال:{مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا}.. [الكهف: ٣٥] فهو لا يتوقع هلاك جنتيه عليه معللًا ذلك بوجود نهر وسط النباتات ليرويها{وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا}..[الكهف: ٣٣]؛ جعل الله –

تعالى- نهرًا بين النباتات حتى يأتيه الماء، قال صاحب الجنتين أن الرياح لن تُسقِط الثمار؛ لأن العنب والجنة محاطَين بالنخل، والنخل حائط صد طبيعي للرياح{وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ}.. [الكهف: ٣٢].

فهو معتقد أن كل الأسباب الأرضية معه وفي صالحه، لذلك عندما أهلك الله -سبحانه وتعالى- الجنَّتين في سورة الكهف لم يذكر بماذا أهلكها، قال تعالى: {وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ }.. [الكهف : ٤٢]؛ صاحب الجنتين معتقد أنه أَحَاطَ بالجنة وحَمَاها، فأتاه العذاب أيضًا وأُحاط بجنتيه؛ فالله -عز وجل- إذا أرسل العذاب، أحاط بالإنسان ولا يقف أمامه شيء -سبحانه وتعالى- ولا يقف أمامه سبب.

لذلك مسألة طول الأمد في النعيم يؤدي إلى إحساس بالأمان، وهو أمان وهمي، وهو ما نسميه [وهم الاستقرار]، يظن الإنسان أنه آمِن بما أنه يرتكب معاصٍ متكررة وفي نفس الوقت النعيم الدنيوي يزداد ولا ينزل عليه عقوبات؛ هذه المرحلة هي ما يعيشها كثير من العالم الغربي الآن، وهو الإحساس بالأمان، يتساءلون: أين العذاب؟ ويستعجلونه ويتهكمون!، {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ}.. [المعارج: ١] أين هو؟! وهو واقع سيأتي؛ لكن لا يُبصر ذلك إلا أهل الإيمان.

كما قال أهل العلم الموقنون في آخر سورة القصص عندما كانوا ينصحون الذين اغتروا بقارون، قالوا: {وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ}.. [القصص: ٨٠] فأخبر ربُّنا أن هذه الكلمة لا يقولها في وقت الفتنة إلا الصابرون؛ لكنَّ كثيرًا من الناس لا يُصدِّقون إلا لحظة نزول العذاب، {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ}.. [القصص: ٨١].

ماذا قال الناس بعدما نزل العذاب على قارون؟

قالوا: {وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ}.. [القصص: ٨٢]، يتساءلون أكان من الممكن أن يكون بسط الرزق ابتلاء؟ فأيقنوا وقت نزول العذاب أن بسط الرزق بالفعل كان ابتلاءً، وأن كلام الناصحين كان صحيحًا.

{أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ}.. [الأعراف: ٩٧-٩٨]

ذكرنا العذاب وتنوع نزوله في أول السورة، وتسميته بالبأس، وذكرنا الإشارات لذلك في أول السورة، وأن نزول العذاب في وقت الغفلة سواء وقت النوم أو وقت اللعب واللهو أمر أشد إيلامًا.

قال بعض أهل العلم: لماذا قال ربنا {ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ}..(الأعارف:٩٨) ؟ لماذا جعل الضحى وقت اللعب؟

فقال بعض أهل العلم شيئين:

القول الأول: إما لأنهم انشغلوا بدنياهم في هذا الوقت عن آخرتهم؛ إذًا الانشغال بالدنيا فقط دون الانشغال بالآخرة سُمّي لعبًا كما قال تعالى: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ}.. [الحديد: ٢٠].

ماذا إذا كان شخصٌ يشتغل في الدنيا ويحتسب، ويأكل من عمل يده، ويصلي ويقطع هذا العمل لأجل صلاة الظهر مثلًا، ويذكر الله -عز وجل-، ويعطي حق الله في ماله من الزكاة؟

فهذا ليس بلعب، بل على قدر نيته يؤجر بإذن الله -عز وجل-.

فإذًا، سمّى الله -عز وجل- الانشغال بالدنيا عن الآخرة، لعبًا؛ مع أن وقت الضحى هو وقت شدة الانشغال الدنيوي فسمّاه الله لعب.

القول الثاني: لأنهم كانوا مشغولين في هذا الوقت ببث شبهات الكفر على المسلمين والخوض في الكفر، مثلما كان المؤمنون ينشغلون بنشر الدعوة، كان إعلام أهل الباطل في هذا الوقت منشغل بنشر الكفر والشبهات فسمّاه الله لعبًا؛ لأنه لن يؤتي ثماره بإذنه -سبحانه وتعالى-.

{أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ* أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ}.. [الأعراف: ٩٨-٩٩]

من تجده دائمًا مطمئنًا ويشعر بأنه يعصي الله، اعلَم بأن هذا خاسر؛ لأنه يأمن أن يمكر الله -عز وجل- به، لا بد أن يعيش الإنسان دائمًا بين الخوف والرجاء؛ الذي يقطع جناح الخوف من حياته يصل إلى مرحلة الأمن من مكر الله غالبًا سيخسر.

يتعجب المرء أحيانًا من إنسان يُفتن بأبسط الأشياء، مواقف عجيبة -نسأل الله السلامة-؛ الذي يغتر في علمه أو في دعوته أو في بذله أو في عبادته، ويغتر ويعتقد أنه وصل بمجهوده غالبًا ما يُفتن بأبسط الاشياء، بمعنى أن أبسط المواقف ممكن أن تفتنه -والعياذ بالله- ويسقط في معصية عظيمة؛ فكذلك هؤلاء لما عاشوا في حالة الأمن من المكر {فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ}. [الأعراف : ٩٩].

ثم قال ربنا -سبحانه و تعالى-: {أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ}.. [الأعراف : ١٠٠] نجعل هذه الآية والآية التي تليها في المرة القادمة بإذن الله -عز وجل-؛ لأنها تحتاج إلى تفصيل، وهناك خلاف طويل في قوله -سبحانه وتعالى- {فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ}.. [الأعراف: ١٠١] آية ١٠١، هناك خلاف طويل بين المفسرين فنرجئ الكلام في هذه الآيات للمرة القادمة.

نسأل الله -عز وجل- أن يستعملنا ولا يستبدلنا، وأن يستعملنا لنصرة دينه، أسأل الله -عز وجل- أن ينصر أهل حلب، وأن يمدهم بمدد من عنده، وأن يغيثهم، وأن يداوي مرضاهم، وأن يرحم شهدائهم، وأن يتقبلهم في الشهداء، وأن يرفع درجاتهم في عليين، وأن يمدَّهم بمدد من عنده -سبحانه وتعالى-، وأن يعذرنا على تقصيرنا، وألَّا يأخذنا بعذاب من عنده بسبب تقصيرنا؛ نسأل الله أن يعفو عنا، وألَّا يُعاجلنا بالعقوبة، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وجزاكم الله خيرًا.